محفوظ عبد الرحمن ..
صورة على ورقة القلب .

رامي عبد الرازق*

يقول الروائي الكولومبي جابرييل جارثيا ماركيز : «إن الحياة هي ليست ما يعيشه أحدنا بل ما يتذكره..وما يتذكره ليرويه»، وبالقياس الإنساني البسيط يمكن القول : إن الحياة أيضا هي من نلتقي بهم، فيتمكنون من رسم صورتهم على ورقة القلب الصغيرة، ولا يغيبون أبداً مهما تشكّل رحيلهم، بالسفر أو بالموت. الحياة هي باقة من اللقطات والمشاهد والتفاصيل الصغيرة التي تلون مجتمعةً تلك الصورة التي نحملها عن هؤلاء الذين قبلوا أن يتركوا آثارهم على مسام رحلتنا القصيرة معهم.

قبل ستة عشر عاما، كان ثمة مساحة شاغرة فوق ورقة القلب، التي تخص شابا جاء ليجلس عند قدمي شيخ جليل من مشايخ الصنعة التي أراد أن يتعلمها، كنت أنا هذا الشاب، وكان محفوظ

---

* ناقد مسرحي وسيناريست مصري، كتب سيناريو وحوار مسلسل»ساق البامبو بإشراف درامي للكاتب الراحل محفوظ عبد الرحمن، وهو من أقرب تلاميذه إليه.

عبد الرحمن هو الشيخ الذي لم أختره، وإنما وجدتني لأسباب تخص الكون والطاقة وعلم الوجود وما ورائه، أجلس عند عموده الذهبي، وأنظر إلى صوته – أجل، أنظر إلى صوته الهادئ- وهو يتحدث عن صنعته الأثيرة، «الكتابة».

أعترف أن المساحة الشاغرة لم تكن مساحة الشيخ أو الاستاذ فقط، وإنما كانت في حقيقة الأمر مساحة (الأب)، كان إطار الصورة الأبوية فارغا، وكنت أبحث عن أبٍ لي، أتخذه بنفسي ولنفسي، دون أن يكون للطبيعة أو المجتمع دور في ذلك، كنت أنتظر من القدر أن يمنحني (الطريق) إلى هذا (الأب)، فقط يشير لي إلى الطريق تاركا لي السير فيه وصولا إليه أو صعودا نحوه.

وكان القدر منصفا على غير عادته، حين رسم لي الطريق إلى أبي المختار، وكان أكثر إنصافا بشكل استثنائي حين كان الاختيار متبادلا، ومن بين عشرات المريدين والمحبين وطالبي العلم والحكمة والصنعة واشارات النصح، وقعت عيناه عليّ، وابتسم ابتسامة الرضا التي طالما كانت عينيه الهادئتين تشعان بها كعلامة صوفية أن ما أتيت به إليه من طلب أو مشورة مجاب وحاضر.

إن كل الصور التي يمكن أن تنطبع على أوراق القلب في كل الحياة تبدأ من اللحظة التي يلخصها هذين القوسين (جلسة وابتسامة)؛ جلسة من شاب طالب للعلم والأبوة ، وابتسامة من شيخ راض بالمكانة ومتأهب للعطاء.

obeikan.com

لم أقل له ولا مرة واحدة يا أبي، لكنني كنت أقولها سرا في كل مرة كنت أسعى فيها بين يديه، أيا كان غرض السعي أو سبب الزيارة، لم أكن في حاجة لأن أقولها، ولم يكن في حاجة لأن يسمعها مني. ذات مرة ونحن في سفرة ما سويا كان ثمة شخص يتحدث له بصوت منخفض، ويبدو أنه يُسرُّ له بشئ ما، فجأة انتبه أبي إلى وجودي ، ورفع رأسه إلى الشخص الهامس وقال له (انت موطي صوتك ليه، رامي ده من العيلة).

لم يكن أبي أبا بخيلا، بل كان أكثر كرما مما يستحق هذا العالم، فعلى عكس ما يتصور البعض أن الحياة هي التي تمنحنا كرمها، وهو أمر غير صحيح، بل إن البشر – الكرماء منهم- هم من يمنحنون الحياة صفة الكرم، هم الذين بعطائهم غير المشروط والمتسع والمرحب بكل شئ، هم من يجعلوننا نصف الحياة بأنها كانت كريمة معنا حين التقينا بهم، وقد كان أبي واحدا من أصحاب العطاءات الكثيرة.

يُعرف البخلاء بعزوفهم عن الإجابة عن أي سؤال أو التخلي عن أي معلومة أو الاستغناء عن كافة نصيحة، ويُعرف أصحاب العطاء والكرم ببذلهم كل ما سبق حتى دون أن يشرع أحدنا بالطلب.

وحين كنت أسأل أبي، لم تكن الإجابة تأتي دوما في صورة مباشرة، فالإجابة السهلة تعني أن شيئا من قيمة التعلم لم يكتمل، ولم تكن

الإجابة غير المباشرة بخلا بل عطاءً من نوع آخر. كنت أسأله في الكتابة فيجيبني من دفتر حياته الواسعة، كنت أسأله عن الحب، فيحدثني عن الدراما، كنت اسأله عن شخص ما، فيحكي لي واقعة تاريخية أو طرفة منسية في كتب التراث، وإذا ما تحيرت، كانت عيناه تشفقان على حيرتي، فيُسهل عليّ الأمر، ويتخلى عن حزم المعلم مقابل بعضا من رحمة الأب.

كان أبي طريفا حد العبث، يعرف كيف يصبغ النوادر بالسخرية الحكيمة، يعرف كيف يدرج الحكي حتى لا يصبح أمامنا سوى الضحك مع تكشف (الإفيه) في النهاية، يحب الضحك ويكره الرسميات، دون أن يعرف الابتذال أو الخفة موضعه في أي مجلس يكون حاضرا فيه، أو وسط أي جماعة يتسامر معها.

حين صارحته في بداية علاقتنا بأنني لا أطيق كرة القدم قال لي وأنا أيضا لا أحبها ولا أشاهدها، ولكنني ذات مرة جلست وواحد من أصدقائي نتابع بالصدفة مباراة دولية وبعد قليل وجدنا أنفسنا (نشد في شعر بعض) من الحماس والتشجيع فهل تعرف السبب ! إنه الانحياز يا عزيزي، لقد علمتني مشاهدة تلك المباراة الوحيدة معنى أن تنحاز إلى جهة أو شخص أو فريق أو كيان، والانحياز متعة يفتقدها الكثيرون في هذه الحياة، تماما مثلما يفتقدها أمثالنا ممن لا يشجعون أو يشاهدون كرة القدم.

كان أبي واحدا ممن تصر الحياة على استبقائهم، أمثاله ليس لهم أيام أخيرة ولا سنوات ما قبل الرحيل، هم لا يغادرون أبدا، فلا نستطيع أن نقول مثلا في أيامه الأخيرة، فكل أيامه هي تواصل ممتد معنا، ومع الحياة والكتابة والبقاء قريبا من كل شئ وبعيدا عن أي ضجيج.

لم يكن أبي يتحدث عن الرحيل بشكل يحمل أية شكوك أو مخاوف أو قلق مما قد ينتظره في الجانب الاخر، كان دوما يقول ربما استأذن بعد قليل فلا تقلقوا، وكانت الحياة دوما ما تحول بينه وبين أن يستأذن منها، كم كان أبي رقيقا في لفظة (الاستئذان) وهو يتحدث عن أمر واقع لا محالة، ويدرك أنه لن يكون متضررا به بقدر ما سوف يؤلمنا نحن الذين انطبعت صورته فوق أوراق قلوبنا.

بعد سنوات ربما طالت أو قصرت من هذه اللحظة الآن، وحين يكشف الملائكة عن قلبي لكي يضعوه في ميزان الحساب، سوف يجدون صورة هذا الشيخ مطبوعة فوق ورقته الصغيرة، وحين يسألونني مبتسمين عمن يكون، سوف أقول لهم وبكل شوقي للقائه ثانية :

إنه محفوظ عبد الرحمن

إنه أبي..

obeikan.com